مقالات

الحداثة والخوف وكورونا

د. محمد همام
جامعة ابن زهر/ المغرب

مركز نهوض للبحوث والدراسات
Nohoudh Center For Researchs and Studies

All rights reserved © 2020
جميع الحقوق محفوظة ٢٠٢٠

الحداثة
والخوف وكورونا

د. محمد همام
جامعة ابن زهر/ المغرب

حلَّت بالعالم جائحة وبائية، أحدثت خوفًا عالميًّا غير مسبوق، وأعادت الإنسانية إلى طبيعتها الأولى، قبل التطورات المذهلة في زمن الحداثة والعولمة؛ طبيعة أولى كانت قائمةً على التضامن، والعمل المشترك، والرغبة العامَّة في حماية الإنسان حيثما كان. كما ذكَّرت العالم بهشاشة المؤسسات العالمية اليوم، وهشاشة النظام الصحي العالمي، وهشاشة الدول الوطنية، وهشاشة **التصنيف المتحيز**: العالم الأول، والعالم الثاني، والعالم الثالث. والأخطر أنها أوقفتنا على **الأساطير المؤسسة للنموذج الحداثي (النيوليبرالي)**، المبشِّر بـ«**الفردوس الأرضي**»، بتعبير عبد الوهاب المسيري، والذي تحوَّل إلى «**الفردوس المفقود**»، كما رسمت معالمه الملحمة الشعرية للشاعر الإنجليزي جون ميلتون (ت: ١٦٦٧م) في عشرة أجزاء. وأهم هذه الأساطير التي بشَّرت (نيوليبراليًّا) بتحقيقها هي **التخلُّص من الخوف!** هذا الكابوس المُفزع الذي ظهر اليوم - بشكل رهيب - مع فايروس كورونا (COVID-١٩).

وبغضِّ النظر عن مقاربات موضوع فايروس كورونا في الإعلام، وفي مواقع التواصل الاجتماعي على الخصوص، من منظوراتٍ مختلفة: علمية، وطبية، وصناعية، واقتصادية، وبيئية، ودينية، وثقافية، وجيوسياسية...؛ **فكلها منظورات لها مسوغاتها، ومرتكزاتها**، بل وتعبِّر عن طبيعة مقاربات الظواهر اليوم، وهي مقاربات عبر منهاجية، ومتعدِّدة الاختصاصات، ومتعدِّدة الحقول المعرفية. ونحن في حاجة إلى تقديم **مداخل تفسيرية لفهم الجذور الفكرية والفلسفية** لظواهر كهذه، بعيدًا عن النزعات الاختزالية والهجائية في حقِّ هذا المنظور أو ذاك. وفي هذا السياق، سننطلق في تقديم مداخل تفسيرية لظاهرة الخوف الرهيب المصاحب لفايروس كورونا، من **الأطروحة الفلسفية التي قدَّمها الفيلسوف البولندي** ذو الجنسية الإنجليزية، زيجمونت باومان (ت: ٢٠١٧م)، في موسوعته حول السوائل، وفي كتابه «**الخوف السائل**» على الخصوص. وعليه، سيكون المشروع الفلسفي لهذا الفيلسوف الناقد هو الأرضية التي ننطلق منها للتدليل على أن **خوف كورونا هو منتج حداثيٌّ بامتياز، يذكي عدم وفاء الحداثة بوعودها** (الحداثة والإبهام، ترجمة حجاج أبو جبر). ويبدو متن باومان من كتاب «**أهل التشريع وأهل التأويل**» (١٩٨٧م) إلى آخر كتبه ومقالاته قبيل وفاته، مرورًا بموسوعة السوائل - يبدو متنًا واحدًا، يحمل أطروحةً واحدةً، يُعبَّر عنها بعناوين مختلفة، وبأمثلة مختلفة. بل يسمح هذا المتن بتغيير أمثلة باومان وتعويضها بأمثلة أخرى، كما في حالة كورونا في زماننا اليوم. ويبقى النموذج التفسيري الذي يقدِّمه باومان قادرًا - لقوته النظرية والتفسيرية وكفايته الإجرائية - على الاستيعاب الكليِّ للأمثلة الجزئية المتنوِّعة، مع حاجته إلى تعديلات و«تكييفات» محدودة.

زيجمونت باومان فيلسوف بولوني الأصل، من عائلة يهودية، ويحمل الجنسية الإنجليزية. وهو من الفلاسفة الماركسيين البارزين في النصف الثاني من القرن العشرين، وينتسب إلى المدرسة النقدية والتجديدية

الماركسية. تأثر بجورج زيمل، وأنطونيو غرامشي، وأنتونو غيدنز، وروبرت كاستل، وبيير بورديو. اهتمَّ في كتاباته الأولى - في الخمسينيات والستينيات - بالاشتراكية البريطانية والطبقات الاجتماعية وحركات العمَّال. وقد تعرض للتهجير من بلاده بتهمة عداء السامية يومذاك. واستقرَّ في بريطانيا أستاذًا لعلم الاجتماع والفلسفة بجامعة ليدز إلى حين تقاعده. اشتهر أواخر الثمانينيات بثلاثية فكرية وتحليلية قدَّم فيها بعض المفاهيم النظرية والتطبيقية لما سيأتي في أطروحة السوائل، وهو ما جسدته كتب: **أهل التشريع وأهل التأويل (١٩٨٧)، والحداثة والهولوكوست (١٩٨٩)، والحداثة والإبهام (١٩٩١)**. وفي هذه الكتب تبلورت أفكاره القريبة جدًّا من مدرسة فرانكفورت، رغم أنه لا يُحسب عادةً عليها، ورغم نزعته النقدية البارزة في أطروحة السوائل، وخصوصًا في كتابه «**الخوف السائل**» الذي استفاد فيه من ميراث **ماكس هوركهايمر وتيودور أدورنو**، في كتابهما «**جدل التنوير**». وقد ذكر علاقته بفكرهما منذ كتابه «**الحداثة والإبهام**»، وورد ذكرهما في جلِّ كتبه بعد ذلك.

وقد أكَّد كلٌّ من هوركهايمر وأدورنو في كتابهما «**جدل التنوير» (ترجمة جورج كتورة)** أن بحث إنسان عصر التنوير عن نظامٍ مثاليٍّ مغلقٍ هو في حدِّ ذاته خوفٌ أسطوريٌّ، تحوَّل إلى خوفٍ بنيويٍّ وجذريٍّ، لم يعد يتحمَّل شيئًا ما خارج النظام. لذلك ندرك اليوم الخوف الذي ينتاب العالم من فايروس كورونا؛ لأنه ما زال خارج النظام، وخارج السيطرة! **فمجرَّد وجود عنصر ما - مثل الفايروس - في الخارج هو مصدر الخوف، بل هو الخوف ذاته.** في هذا السياق، جاء كتاب «**الحداثة والإبهام**» لباومان ليقدِّم المعطيات الكثيرة على «أطروحة الخوف» الملازمة للتنوير وللحداثة، من خلال تحليلٍ مستفيضٍ ومستندٍ على التاريخ وعلى السوسيولوجيا. ويمكن أن نعزِّز اليوم هذه الأطروحة بمعطياتٍ يومية لا تنتهي، ونحن نعيش معركة مواجهة خوف كورونا أكثر من الفايروس نفسه.

ألَّف زيجمونت باومان موسوعته المسمَّاة **بالسوائل**، وتضمُّ الكتب التالية: **الحياة السائلة، والحداثة السائلة، والخوف السائل، والحب السائل:** عن هشاشة الروابط الإنسانية، **والأزمنة السائلة:** العيش في زمن اللايقين، **والمراقبة السائلة، والثقافة السائلة، والشر السائل:** العيش مع اللابديل. وكلها بترجمة راقية وتأصيلية للأستاذ حجاج أبو جبر، وتقديمات وافية ومضيئة لأختنا وزميلتنا الأستاذة هبة رؤوف عزت، أستاذة العلوم السياسية بجامعة القاهرة، ومن منشورات الشبكة العربية للأبحاث والنشر. وتصلح أطروحة باومان - في نظرنا - لمعالجة **التداعيات السيكولوجية للفايروس، واكتساب قدرة الفهم**، ثم **الوعي**، ثم **الثقة في النفس** للتعامل مع وضعية كهذه مستجدَّة على حياتنا أمام الإجراءات الصحية والأمنية والسياسية الصارمة وغير المعتادة المتخذة في كل العالم في مواجهة الجائحة.

صدر أول كتاب من سلسلة السيولة سنة (٢٠٠٠م)، وحمل عنوان: «**الحداثة السائلة**»، وهو عنوان في الوقت نفسه يشكِّل «**نموذجًا تفسيريًّا**» يسعى إلى إنجاز مهمَّة الفلسفة - بتعبير هيغل - أي: فهم الزمن المتغيِّر، وفهم التحوُّل العظيم في حياة الإنسانية، وهو التحوُّل من نمط حياةٍ كان يبدو طبيعيًّا ومألوفًا - على ما فيه من معاناة - إلى نمطٍ جديدٍ مُفزعٍ ومجهول، وبمعاناةٍ أشدَّ. **نمط سقطت فيه المقولات المعرفية الكلاسيكية التي كانت تُستعمل في استيعاب الحضور المعطى للوجود.** فالنموذج التفسيري الذي يقدِّمه باومان هو حكاية هذا الانتقال الفظيع، وهو قصة العبور، وهو قصة التوسُّع التدريجي المتواصل للمسافة التي تفصل الظرف الحياتي الحالي عن نقطة انطلاقه. إنها قصة وضع إنسانيٍّ مختلف عمَّا كنَّا نعرفه أو نألفه. هذا النموذج التفسيري يجعلنا نفهم قصة تباعد الجديد عن القديم. **إنها مأساة رحلة الحداثة! رحلة نفي عناصر الميلاد، وقتل مبادئ التأسيس؛ بعبارات: «لم يعد...»، و«وعلى النقيض من...»، و«وفي مقابل...»، و«وعلى العكس من...».** إن سردية الحداثة السائلة تنطلق من غياب «الصلابة»، وهو غياب ينعكس على ما هو وجداني وذهني، أي على مستوى «اليقين». **فسردية السيولة تبحث في القوة الرئيسة المسؤولة عن تغييب «الصلابة/ اليقين». وهي قوة داخلية، من داخل الحداثة نفسها، بنظر باومان**؛ قوة قائمة على إذابة الكيانات الثابتة والمستمرة وتمييعها. وهي الكيانات التي تستمدُّ قيمتها من استمراريتها ومن بقائها ومن ثباتها من داخلها؛ مثل البنى الاجتماعية، والروابط الإنسانية، والنماذج السلوكية، والنماذج القيمية المعيارية. **فالتحديث - بما هو تمييع (ليس بمضمونه المعياري ولكن بمعناه الفيزيائي)، وتسييل (من السيولة) - كان هو السمة البارزة المرافقة للحداثة في رحلتها الدراماتيكية**، وهو ما يسميه باومان بـ«**التحديث الوسواسي القهري الإدماني**». وهو فعل قائم على الإذابة المتواصلة، والإحلال السريع للبنى والنماذج الذائبة. والغريب أن فعل التحديث كان يرمي في بدايته إلى تحقيق الصلابة أو إلى تعزيزها! بل كان ضد تفكيك الروابط الاجتماعية وضد تقطيعها، لِما يسبِّبه ذلك من «**فقدان الأمن الوجودي**». وعلى هذا الأساس، اشتغل فعل التحديث على صهر البنى القديمة وإذابتها لقلة «صلابتها»، وهو ما كان مدخلًا لانهيار النظام القديم برمته. **ولم توصلنا عملية الإذابة تلك - في نظر باومان - إلى أشكالٍ صلبة كل الصلابة، أشكال محصنة ضد الصدأ والتلف والتآكل؛ أي الوصول إلى «الكلية الكاملة المثلى»** بتعبير أرسطو؛ كلية لا تقبل الإضافة ولا التعديل، ولا تستجيب لإغواءاته! إنها الحالة الثابتة والساكنة التي لا تقبل الانقسام ولا تتصوره. إنها الحالة «الصلبة»؛ حالة التحديث النهائي، التي لا تضاهيها - في نظر رومانسيي الحداثة - حالات صلبة أخرى سجَّلها التاريخ البشري! **أصبح فعل التحديث - إذن - «مهوَّسًا» بعمليات الإذابة والتمييع والصهر**، وسيتحوَّل هذا «الهوس» في مرحلة الحداثة السائلة إلى مداه، بل إلى النقيض من هوس الحداثة الصلبة؛ وهو **إزالة خط النهاية من أفق التحديث.** واشتغل الفعل التحديثي السائل بقوة وحيوية، بل بجنونٍ لإحداث «الطفرات التحديثية» بلا نهاية. وفي

هذا السياق، قد يبدو لنا أنه **وقع الاصطدام بين النموذج الصلب والنموذج السائل للحداثة، من حيث الاهتمامات القيمية والبرغماتية**، مثل العلاقة بين «**الصحة**» و«**اللياقة**»؛ إذ الأولى تطلب الثبات، وتحمي الحالة من الزيادة أو النقصان، وأما الثانية فلا تقف على ثابت، ولا تعترف بالحالة «النهائية». ففي هذا النموذج الأخير مثلًا، يحتلُّ انعدام الراحة مرتبةً أعلى من أي شكلٍ من أشكال الراحة! كما يحتلُّ التغيُّر مرتبةً أعلى من أي ثابت، مهما تحقَّق فيه من الراحة والمتعة والأمن. وبرغم هذا الاصطدام البارز بين النموذجَيْن، من حيث القيم، فإن «**السيولة» في الفعل التحديثي ليست نقيضًا لنموذجه «الصلب»**، بل تعكس انقلاب هرم القيم الذي اتخذته الحداثة الصلبة، ويحقِّق هدفها الواضح أو الكامن. ومهما بلغت درجة «التمييع» و«التذويب»، بما يمنع إعادة تجميد الكتلة المنصهرة، فإن **عملية «التسييل» تصوغ التصور الحداثي الصلب في قالبٍ ماديٍّ صارمٍ و«مشيء»**. نموذج يستبعد البدائل الأخرى ويلغيها، ويحرِّرها من شرعيتها وواقعيتها. لقد **أصبح الفعل التحديثي مصابًا بالوسواس القهري**، همُّه الإذابة والتمييع، حتى أصبح قاعدة ملزمة، ونظامًا مستقرًّا جديدًا بل ودائمًا. اعتبره البعض «**نهاية التاريخ**»، ومنه تناسلت نبوءاتٌ أخرى كثيرة، ارتقت به إلى درجة **العقيدة الراسخة! بأركان إيمانها الثلاثة: المرونة هي الثبات الوحيد، والزوال هو الدوام الوحيد، والسيولة هي الصلابة الوحيدة. ولكن ركن الإحسان الكبير في هذه العقيدة هو: اللايقين هو اليقين الوحيد**. يعيش الناس اليوم هذا النظام باعتباره واقعًا مفروضًا وملزمًا، بما هو حقائق اجتماعية قاهرة - بتعبير إميل دوركايم - لا تقلُّ «قهريتها» عن قهرية الأجسام المادية الصلبة. والوعي بهذا الواقع وبهذه التحولات يقتضي الغوص الفكري في واقعنا الاجتماعي، وأخذ صور فوتوغرافية لمجتمعٍ في حركة وتغيُّر مستمرين، ونحن بصدد الانتقال من محطة إنسانية كبرى إلى أخرى، جاء فيروس كورونا إحدى علاماتها الكبرى.

إن زمن الكورونا الذي نعيشه اليوم هو زمن «سيولة»؛ زمن يضع تحديات الوجود الإنساني المشترك على المحكِّ. فخروج الفايروس عن السيطرة يؤكِّد أن الإنسانية تفتقد الممارسات الجديدة، كما تفتقد أنماط الحياة الجديدة، بما يتلاءم والظروف الجديدة. ربما الأمر ما زال يتطلب عمليات «إذابة» و«تمييع» أخرى! لقد أكَّد باومان أن من مميزات زمن السيولة هو افتقاد الوجهة الواضحة، ولا نملك إلَّا أن نجرب، وأن نتحسَّس الطريق في الظلام، وهو ما يعيشه العالم اليوم. ولا نملك إلَّا «آليات الاستبدال»، من مثل ما يتمُّ إنجازه على المستوى البيئي والأيكولوجي، واستعمال الطاقات المتجدِّدة، وتفكيك مصانع الفحم واستبدال بها مصانع الطاقة النووية مثلًا. **إن العالم اليوم وهو يواجه الفايروس، يشعر أكثر مما يعلم، كما يعيش - في نظر باومان - لحظة انفصال السلطة (بما هي القدرة على فعل الشيء) عن السياسة (بما هي القدرة على تحديد الشيء الذي ينبغي فعله)**. وهذا ما يذكيه الارتباك الذي نلحظه في القرار

السياسي الدولي، إن على مستوى الدول منفردة، أو على مستوى المؤسسات الدولية: السياسية، والصحية، والاقتصادية، والبيئية، والعلمية، وحتى الدينية. **إن العالم يعيش ارتباكًا لأنه لا يدري: ماذا يفعل؟ ولا يعلم: من سيفعل؟** لذلك نفاجأ ببعض المبادرات العفوية في بعض المجتمعات - بغضِّ النظر عن خلفياتها وأسبابها المباشرة وسياقاتها - تنتمي إلى الأفعال الجمعية الموروثة، من الدين، أو الثقافة، أو القبيلة، أو أية مؤسسة تقليدية. وهي محدودة على كل حال، لسببٍ موضوعيٍّ هو أن أغلبية أهل الأرض مندمج - طواعيةً أو قهرًا - في نطاق الحداثة، وشمله فعل التحديث، الصلب والسائل، بما صاحبه من تداعياتٍ ومستجدات، مثل ظواهر: الخوف، والقلق، بشكلٍ غير مسبوق، بسبب كورونا مثلًا.

يستعمل باومان مفهوم «الحداثة السائلة» باعتباره مفهومًا تفسيريًّا، يملك من القدرة النظرية والكفاءة الإجرائية ما يجعله قادرًا على تجاوز مفهوم «ما بعد الحداثة» العاجز - في نظره - وعلى فهم التحولات المستجدة في العالم، وتقلبات الحداثة وكذا مسارات فعل التحديث، وانعكاساتها على الحياة اليومية للناس. هذا الفعل التحديثي القائم على «التغيُّر» و«اللايقين». فإذا كانت الحداثة في المائة عام الماضية قد جعلت من أهدافها الوصول إلى حالة نهائية من الكمال، فقد وجدت نفسها اليوم - مع حالة السيولة - تخوض معركة التقدُّم والتحسين بلا حدود، من دون أن تلوح حالة نهائية في الأُفق! بل لم تعد ترغب الحداثة السائلة في مثل حالة ثابتة ونهائية كهذه. وليست السيولة نقيضًا للصلابة، كما ذكرنا، بل هي أثر من آثار البحث عنها. وعليه، أصبح الجهد التحديثي مركزًا في ترسيخ فكرة النظام وفرضه على أرض الواقع، ترغيبًا أو ترهيبًا. وعليه، حلَّت المرونة مكانَ الصلابة، من منطلق أن المراكز الصلبة كافةً ستظل - بل يجب أن تظلَّ - قابلةً للذوبان وتمتثل إليه. **فكلما أنجزنا بنيةً ثابتةً وعزَّزنا صلابتها، لا بدَّ من توفير تقنياتٍ خاصَّة وفعَّالة مصاحبة تضمن إذابتها مرةً أخرى**، وتوفير الضمانات الكافية التي تعطينا الحقَّ في تفكيكها، ثم إعادة البناء مرةً أخرى. وهنا تصبح البنية هشَّةً، أي تصبح قابلةً للتفكيك بمجرَّد البناء. وهدف الفعل التحديثي السائل أن يوصل كل البنيات الصلبة إلى هذا المستوى من الهشاشة. ولم يعد هدف الفعل التحديثي السائل هو التحكُّم في المستقبل وتثبيته، بل ضمان استقلاله وحريته. لقد ظلَّ الفعل التحديثي السائل - وما زال - يخوفنا من الأشياء الثابتة المتماسكة؛ الأشياء التي تبقى أكثر مما ينبغي. هذا الثبات الذي يمثله في الثقافة الغربية «ذنب فاوست»، عندما تمنَّى أن يمسك بلحظةٍ جميلةٍ ويجعلها تدوم إلى الأبد، فعقد عقدًا مع الشيطان ليحقِّق له ذلك. وهو ما ولَّد الخوف من كل شيء «لزج»، ثم تحوَّل إلى نوعٍ من النفور الفطري، بتعبير سارتر. **وأصبح هذا الخوف هو المحرِّك للفعل التاريخي في بداية العصر الحديث السائل.** فالخوف من السيولة ومن اللزاجة كان نقطة تحولٍ نموذجية.

وعليه، سعى الفعل التحديثي في مرحلة الصلابة إلى صياغة القوالب القادرة على استيعاب المعدن المنصهر، وإلى ضمان الحفاظ على تصميم هذه القوالب. لقد كان يسعى إلى الكمال وإلى الاستراحة بعد تعبٍ وعملٍ شاقٍّ. لذلك كان العقل الحداثي الصلب يتقزَّز من كل جديد. وحتى إذا حصل فليس إلَّا إجراءً أوليًّا ينتهي إلى الاستقرار والهدوء والراحة. إنه تحول من نُظُمٍ وأُطر بالية، من البنيات التقليدية، أصابها الصدأ والعفن، إلى أخرى نهائية ملائمة ومثالية تمَّ تصميمها وفق حاجات الزبائن، وقادرة على الصمود في وجه التاريخ! وقادرة على الخروج بسلامة من كل اضطراب، والعودة إلى حالة الاستقرار والثبات. والمتأمِّل اليوم في خطابات القادة السياسيين على الخصوص، في مواجهة الفايروس، يلحظ هذه النزعة من الطمأنة ومن التعبير عن الثقة في النظام، وفي قدرته على استرجاع عافيته، وعلى قدرته على هزيمة الفايروس، والخروج من حالة الطوارئ والمواقف المتقلِّبة، ومن حالات الغموض والالتباس والكوابيس التي تطارد القائمين على سلامة النظام. وهم يسترجعون - بالمناسبة - مثالية علماء اقتصاد في القرن التاسع عشر عندما بشَّروا بنموٍّ اقتصاديٍّ يصل إلى لحظة تلبية الحاجات البشرية كافةً، وهي لحظة «اقتصاد مستقر» يحافظ على إنتاجيته باستمرار! وهي يوتوبيا تقوم على أيديولوجيا الاستقرار، والقفز على معطى الاختلاف والتنوُّع الذي يعيش فيه العالم، بما يسبِّب حالات اضطراب وصراع وتناقض المصالح. ولم يكن ماركس وإنجلز يومذاك - وهما يفكِّكان هذا «الصهر الرأسمالي» - إلَّا شابَّيْن متحمِّسَيْن ومُندفعَيْن.

إذن، لقد رافق فعل التحديث الصلب نوع من الفعل الوساوسي القهري، بتعبير باومان؛ فانتقل من تذويب البنيات قليلة الصلابة إلى تذويب البنيات مفرطة الصلابة، **فأصبح الهدف لا شيء، والحركة كل شيء**. من هنا حصل «التحول العظيم» في أقل من قرنَيْن من الزمان، ووقع التحول في القيم، بين الصلابة والسيولة، **من قيمة «طول البقاء» إلى قيمة «سرعة الزوال»**. فأصبح العالم يعيش حالة سيولة، تعظم المرونة في قلب الأشياء، وتفضِّل الروابط الإنسانية التي يسهل التخلي عنها، والواجبات التي يسهل عدم الالتزام بها، وكذا قواعد اللعب التي لا تدوم أطولَ من زمن اللعبة التي نلعبها، وغيرها.

ويذهب باومان إلى أن كل أمَّة قد دخلت في مرحلة السيولة، بحسب سياقاتها التاريخية، وبسرعاتٍ مختلفة، وفي ظروفٍ مختلفة، مما يستبعد تكرار كل انتقال، وكل مسار. وأي محاولة للدمج القسري للمسارات، خارج سياقاتها التاريخية، يوقع كوارث عظمى؛ مثل تجربة الصين التي تعيش اليوم - في نظر باومان - **تحدي «التراكم البدائي لرأس المال»**، مما ينذر بتفكيكٍ اجتماعيٍّ كبير وباضطرابٍ وبفوضى وبعدم الرضى. ويحصل هذا التراكم البدائي في بيئة معادية للحرية، بما يصدم الضحايا والمصابين، أمام الإجراءات القمعية والصارمة لديكتاتوريات لا ترحم؛ **ديكتاتوريات همُّها اللحاق بسفينة الحياة الاستهلاكية**

اللذيذة، وبمجداف «الحداثة السائلة». وهذه التجربة السائلة اليوم تجسِّدها الصين والديكتاتوريات الصغيرة المحيطة بها في: كوريا الجنوبية، وسنغافورة، وتايوان...، وحصل مثلها بعد الحرب العالمية الثانية في تجربتي ألمانيا واليابان.

وعليه، فإن الحرية التي كانت مطلبًا رئيسًا لحركة التنوير، قد أعطتنا «مستهلكًا مثاليًّا»، عوض «المنتج المثالي» الذي طالب به ماركس. فأصبحنا نعيش حالة «**حرية سالبة**» بتعبير باومان. وهذه المشكلة ذات طبيعة اجتماعية وسياسية وليست قضية ميتافيزيقية كما توهَّم بعض الباحثين. وستبقى مشكلة الحرية في العالم اليوم في حالة مخاضٍ دائم، خاصةً «**الحرية الموجبة**» التي نعاني من نقصٍ فيها اليوم زمن مواجهة الفايروس، ونمعن في ترسيخ «الحرية السالبة»، خاصةً عند انفصال السلطة عن السياسة - كما ذكرنا سلفًا - **في زمن سيولة مستمرة، يكون فيها كل شيء يمكن أن يحدث، ولكن لا شيء يمكن أن نفعله بثقةٍ واطمئنان.** فكم نلحظ العالم اليوم في هذه الظروف الصحية الصعبة، وهو يعيش حالة خوف وحالة لايقين؛ حالة تجمع بين الإحساس بالجهل (أي استحالة معرفة ما سيحدث) والإحساس بالعجز (أي استحالة منع ما سيحدث)، والإحساس بالخوف، بما لا تستطيع النفوس وصفه أو إدراكه أو تحديده. **إنه خوف يشبه السَّيْرَ في حقل ألغام، ننتظر في كل لحظة أو في كل مكانٍ انفجارًا، ولكن لا أحد منَّا يعرف زمان الانفجار ومكانَهُ بالضبط! وهل يصل إليه أو يبقى في حدود غيره فقط؟** فهل يكون الحل هو: استعادة الروابط الصلبة؟

لقد عزَّز فايروس كورونا منظومة الخوف التي يعيشها الغرب منذ مدَّة ولأسبابٍ متعدِّدة. فقط عمَّمها كورونا على العالم، من خلال آلة إعلامية ضخمة قادرة على الوصول إلى كل بقاع الأرض، بالصوت والصورة والمعلومة، الصحيحة أو الخاطئة. فأوروبا مثلًا تعيش مشاعر من الخوف المرضي من الهرم والشيخوخة (أي أزمة العمر والخوف من الانقراض)، في مقابل مشاعر أخرى من الخوف من الأجانب، مهاجرين أو لاجئين (وهم الدواء الوحيد للداء والأزمة؛ دواء الاستمرارية والبقاء)، بتحريضٍ من ساسة مهوَّسين بكراهية الأجانب، ومولعين بإشعال النيران، وحرق الأشياء؛ مثل: برلسكوني في إيطاليا، وساركوزي في فرنسا بالأمس، وبوريس جونسون في بريطانيا، وترامب في أمريكا اليوم. إذ تقوم أيديولوجيتهم جميعًا - مع اختلاف جزئيٍّ في السياقات - على **تدوير الخوف وتحويله إلى «رأس مال انتخابي». ويعزِّز هذا «الخوف السياسي» بنوعٍ آخر هو «الخوف الاقتصادي»**، نسمع نماذجَ منه في تقارير وكالة الطاقة الدولية التي تحذِّر باستمرار من أن الإنتاج العالمي للبترول سيصل إلى ذروته، وسيصل إلى مستوياتٍ منخفضة غير عادية بدخول مستهلكين جدد يعانون من ندرة البترول؛ مثل: الصين والهند والبرازيل. (**لاحظوا: الصين حاضرة دائمًا في المعادلة الدولية، باعتبارها عاملًا سلبيًّا!**). وتعزَّز هذا الخوف بمقالاتٍ في الإعلام الغربي، كانت تحمل عناوين

مخيفة، مثل: (**النوع البشري في خطر**، جريدة لوموند الفرنسية، أبريل ٢٠١١؛ والغارديان البريطانية، ٢٠١٠). وقد حذَّر كتَّاب كثر من أن أولى ضحايا هذا القلق والخوف هي: الديمقراطية؛ إذ سيتحول البحث عن الموارد، واحتكارها، والحفاظ عن نمط الحياة الكريمة التي تعيشها دول الرفاه، سيتحوَّل إلى ساحة حربٍ تُقطع فيها الرقاب، بين من اعتقدوا بأنهم أسسوا نمطًا حياتيًا ثابتًا ومستقرًا خاصًّا بهم، ضد من يهدِّدهم في مواردهم. وهو نمط يقوم على عقيدة استهلاكية سائلة، لا تقنع بالقليل، ولا تقف عند حدٍّ؛ إنها **السعادة الأبدية والسعادة الفورية - بتعبير باومان - التي توجد في «جنة السوق»، مما يفرض تسييج هذه الجنة، التي تجري من تحتها أنهار البترول والطاقة والسلع بلا انقطاع**، بأسوارٍ مقدَّسة عالية ومستعصية الدخول على الغرباء: لاجئين ومهاجرين وملوَّنين! وهم يتجاهلون الإنذارات التي وجَّهها مفكِّرون، مثل ما ذكره تيم جاكسون في كتابه «**رخاء بلا نمو**» عام ٢٠٠٩، عندما حذَّر من المناخ المعادي القادم الذي سيواجهه أطفالهم وأحفادهم، وما ستتعرض له البيئة من تدمير، وفناء الأنواع، وندرة الغذاء، والهجرة الجماعية، وانتشار الأوبئة، واندلاع حروبٍ مدمرة غير تقليدية وغير أخلاقية، مثل الحروب البيولوجية والجرثومية. أما دعوات محاربة الفقر، والتنمية المستدامة، وعدالة توزيع الثروات والموارد العالمية، فليست إلَّا نفاقًا وجريمةً في حقِّ العقل وفي حقِّ الإنسان. وأمام هذا الوضع المفزع، يذهب باومان إلى **أن التماس الحل ليس إلَّا في خارج الدائرة المفرغة الخاصَّة باستخدام الموارد والطاقة وإساءة استخدامها أو استغلالها، ويوجد داخل العلاقات والأُسر والجماعات التراحمية.** ويسوق باومان مثالًا لذلك بالمجتمع الاستهلاكي السائل الذي يرتبط فيه العمل بالربح، وبين مجتمع **الجماعة التراحمية**، وهي وحدة صغيرة محلية ونشطة، يرتبط فيها العمل بالأمانة للجماعة والإخلاص في الانتماء إليها. وبالتأكيد ترى الحداثة السائلة في هذه المسلكيات الاجتماعية مجرَّد معطياتٍ كانت توضع في تقارير إثنوغرافية، وتعبِّر عن نمط حياةٍ غابرة وبالية، وغير قابلة للاستعادة في زمننا السائل. وبالتأكيد هذه العملية - عند باومان - مرتبطةٌ **برؤية جديدة للتاريخ، وبفهم جديد للتقدُّم، وتصوُّر جديد لحياة بلاخوف.**

يصطدم هذا التصور الجديد بقالب الحداثة السائلة والقائم على الصهر والإذابة؛ إذابة كل متشبِّث بالبقاء، والتحرُّر من «الماضي المستبد الصلب»، و«تدنيس المقدَّس»، وتحطيم الدرع الواقي الذي يتشكَّل حديده ومعدنه من المعتقدات والولاءات والقيم الصلبة المقاومة للصهر والإذابة. وفي هذا السياق، تمَّ تذويب و«تسييل» مقومات النظام القديم؛ من الولاءات التقليدية والواجبات والحقوق المعهودة، وكل ما يعيق الحركة، ويكبح المبادرة. وقد عبَّر ألكسي دو توكفيل عن نماذج وطرقٍ من هذه التحولات في كتابه «**النظام القديم والثورة الفرنسية**»، وهو من أمهات الأدب السياسي الكلاسيكي الفرنسي، وكان من المراجع

الأساسية التي اعتمد عليها باومان في نحته لمفهوم السيولة، من خلال تتبُّع عمليات الصهر والإذابة للبنيات الاجتماعية القديمة، خاصةً عند تحول المجتمع الفرنسي من مجتمعٍ قديمٍ قبل ثورة ١٧٨٩، إلى مجتمعٍ بنظامٍ جديد. وتمَّ بذلك تحرير المبادرة من قيود الواجبات العائلية ومن النسيج الكثيف الذي يميز الالتزامات الأخلاقية، بتعبير ماكس فيبر. وأصبحت الرابطة المالية هي التي تحدِّد المسؤوليات المشتركة بين الناس، وعلى أساسها يتمُّ تبادل المنفعة. وفي هذا السياق، نشأت «**العقلانية الأداتية**»، **وبرز الاقتصاد حاكمًا جديدًا مفصولًا عن كل التشابكات الثقافية والأخلاقية والسياسية التقليدية، لكنه مهيمنٌ عليها في الوقت نفسه**، ومهيمنٌ على منظومة الحياة الإنسانية. إذن، أُطلق العنان مع النظام السائل لأساليب السرعة والهروب، وتمَّ تفكيك كل الروابط وأشكال الارتباطات على نحوٍ جذريٍّ يحتفي بالاجتناب بدل الالتقاء. وظهرت مؤسساتٌ من دون مضمونٍ قيميٍّ، أو ما سمَّاه أولريش بك بـ«**الحداثة الأخرى**»؛ حيث توجد الأسرة مثلًا من دون قيم الأبوَّة أو الأمومة!

إن السيولة - كما ذكرنا - انعطافةٌ جذريةٌ في مسار الحداثة الصلبة. ولكن كورونا وضعنا في مرحلة ما بين الحداثتَيْن: صلابة وسيولة، فكيف ذلك؟

إذا كان الفعل التحديثي السائل - من منظور باومان - يقوم على الإذابة والصهر والتمييع، بمضمونه الفيزيائي، فإن الاجتماع الإنساني الحديث في مواجهته لكورونا - سواء على صعيد الدول أو على الصعيد العالمي - سعى إلى استعادة شيء من صلابته، أو ما سمَّاه أولريش بك بـ«الحداثة الأخرى». وتساعدنا أسطورة/ حقيقة ميثولوجيا الإنسان الحي الميت، أو ما يُسمَّى بـ«**الكيانات الزومبية**»، تساعدنا في فهم هذه الوضعية التي نعيشها اليوم. لقد استهلكت السينما الأمريكية «الحالة الزومبية» كثيرًا في الثمانينيات بكثيرٍ من الاستنزاف والتشويه، وأصبحت جزءًا من الثقافة الشعبية الأمريكية. ولا يتذكَّر مدمنو السينما الأمريكية في الثمانينيات من هذه الحالة إلَّا صورة الزومبي المرعبة عارية من جذورها التاريخية والواقعية الحقيقية. فالحالة الزومبية **حالة «ترانسفير مأساوية» للسود الأفارقة** في ظل الاستعمار الفرنسي بسانت دومنيك التي تُسمَّى اليوم «دولة هايتي»؛ مأساة العمَّال السود في مزارع قصب السكر في ظروفٍ قاسية وغير إنسانية، مع بؤس وقمع شديدين. وهو ما جعل الانتحار هو الطريق الوحيد عند العمَّال للخلاص الفردي؛ لأنهم كانوا يحملون وعيًا زائفًا يقوم على أن الانتحار يبعثهم بعد الموت في إفريقيا، فشاعت عودة «الكيانات الزومبية بعد الموت»، وهي اعتقادات هجينة من الثقافة الإفريقية، بمضامينها السحرية في بعض جوانبها، والثقافة الهايتية ممزوجة ببعض المكونات المسيحية. وهو موضوع أنجزت حوله الباحثة الأنثروبولوجية الأمريكية زورا نيل هيرستون أبحاثًا مهمَّة. كما أن المستكشف الأمريكي ورد دافيس بحث في حالاتٍ زومبية لبشر يعتقدون عودتهم من الموت! واكتشف في تحقيقاته **أن الحالة الزومبية تحوَّلت إلى**

«حالة كيميائية»؛ أي وجود علاقة مع مزيج مركَّب من مواد بيولوجية وكيميائية ونباتية ومواد متضمنة لـ«النوروتوكسين»، وهي موادُّ سامَّة وذات أثر خطير في الجهاز العصبي، ومسؤولة عن انخفاض حرارة الجسم، وضيق التنفُّس، وإصابة الجسد بالعياء الشديد.

إن الحالة الزومبية التي قد نعيشها اليوم مع كورونا ليست نوعًا من الرغبة في التحرُّر بعد الموت، كما اعتقد الزومبيون، وإن كان العالم يعيش الكثير من الحالات الزومبية مع الحداثة الصلبة قبل السائلة. فالحالة الزومبية التي استثمرها باومان في أطروحته حول السيولة، ترتبط بعودة الكيانات التي ماتت وفارقت الحياة، أو قُل بتعبير باومان خضعت للصهر والذوبان والتسييل والتمييع. وهي كيانات أحياها كورونا، مثل: الأسرة والطبقة والجيرة والتضامن. ولكن يبدو أنها عودة مؤقتة. فالمجهودات قائمة بشدَّة للعودة إلى لحظة الصلابة التي تؤطرها حركة السيولة. فالعودة المؤقتة للكائنات الاجتماعية الزومبية ستواجه بانهيار المفاهيم الصلبة المؤطرة لسرديات الوضع الإنساني. فهل تملك الإرادة الإنسانية المشتركة المقاومة المصاحبة لكورونا القدرةَ على بعث المفاهيم التفسيرية الصلبة، وإن أخذت شكلًا جديدًا أو صورةً جديدةً؟

إن إعادة المفاهيم التفسيرية الصلبة - في هذه اللحظة - مرتبطةٌ بالتصدي لسيولة الزمن، وانفصاله عن المكان، والانتباه إلى خطر المراقبة السائلة، وتداعيات الخوف السائل. فقد وضعنا كورونا حقيقةً في وضعٍ أشبه بما يسميه ميشال فوكو بـ (**Panopticon**)، وهو مفهوم استثمره أيضًا باومان في تعميق شرح نماذجه التفسيرية خاصةً في الحالة التطبيقية، ودراسة الأمثلة من الحياة اليومية والمؤسسات الاجتماعية. فـ (**Panopticon**) عبارة عن سجنٍ دائريٍّ تراقب فيه زنازين السجناء من كل جانب، وتوجد على رؤوسهم في كل زواياه غرف المراقبة. وهو صورة مناسبة للسلطة اليوم في زمن الكورونا. ففي نموذج ميشال فوكو يوضع النزلاء بالمكان، ويمنعون من الحركة، وهم محبوسون بين جدرانٍ سميكة غليظة شديدة الحراسة. وهم مضطرون إلى التزام أماكنهم المحدَّدة في كل الأوقات؛ لأنهم لا يعلمون - ولا سبيل لهم إلى ذلك - أين يوجد حراسهم. فهم حراس ينعمون بالحركة كما يشاؤون، ويملكون سيادةً على الزمن وعلى المكان؛ فهم القادرون على شلِّ حركة المرؤوسين/ المحتجزين في المكان لمنعهم من الحركة، وبتنميط إيقاع الزمن الذي يضطرون إلى الإذعان له. وانطوت هذه الوضعية - رغم ذلك - على مفارقة صارخة، وهي أن سلطة الرقابة لا تنعم هي نفسها بحرية الحركة المثالية. فمنطق الـ(**panopticon**) - وهو نوع من الرقابة الصلبة، ومنتوج حداثيٌّ صلب بامتياز - مكلِّف وباهظ الثمن؛ لأن الإبقاء على النزلاء داخل مكان/ حيز محدَّد يتطلب نطاقًا واسعًا من الأعمال الإدارية الثقيلة، ويتطلب الأمر بناياتٍ وحراسًا مراقبين يطلبون أجرًا، وضرورة

الاعتناء بالنزلاء والمحاصرين/ المراقبين في الحيز، وتوفير معاشهم، وتحمُّل المسؤولية تجاه المصلحة العامَّة للمكان وأهله.كما أن المراقبة ذاتها تتطلب ارتباطًا بالمكان وحضورًا فيه، في ظل صراعٍ عنيفٍ ومستمرٍّ مع النزلاء. وهل تستطيع كل الإدارات/ المراقبة الالتزامَ بمقتضيات المراقبة والضبط؟ وهل نحن حقًّا نعيش هذه الوضعية اليوم؟ تستعمل الدول اليوم أدوات الحداثة الصلبة في التعامل مع كورونا، لكنها - للأسف - تعيش زمن الحداثة السائلة؛ أي إن منطق الـ (**Panopticon**) أصبح مفهومًا تفسيريًّا متجاوزًا، بنظر باومان؛ إذ لا يمكن تطبيقه في عصر السيولة، عصر نهاية الارتباط المتبادل بين الرؤساء والمرؤوسين، وبين رأس المال والعمل، وبين القادة وأتباعهم، وبين الجيوش التقليدية المتحاربة. إن مفهوم السلطة السائلة اليوم يرفض التقيُّد بالمكان وما يترتب عليه من آثار تعوق سهولة الحركة، كما **ترفض السلطة السائلة تبعات بناء النظام والحفاظ عليه، ولو كان نظامًا صحيًّا، للأسف! إن السلطة السائلة ترفض تحمُّل التبعات والعواقب والتكاليف**. ولا نستبعد أن الفايروس يدخل في أحد أبعاده في استراتيجية الحرب بلا تكاليف، أو الحرب دون مسؤولية؛ إنه نموذج الحرب الجديدة في زمن السيولة! وهو نذير خطر كبير يهيئ الأجواء لقوى عالمية سائلة جديدة. فهل الفايروس منتوج سائل إلى هذا الحدِّ؟

نعم كورونا منتوج سائل، عبَّر بوفاء عن الحياة السائلة وعن مخاوفها. فإذا جعلتنا السيولة نعيش حالةً عالميةً مفتوحةً، تقوم على الانتقال الحر للرساميل والسلع والبشر وكل شيء، وجسدت - حقيقةً - العالم/ القرية الصغيرة، **فإن كورونا بتمدُّده على كل العالم بسط رداءَ الخوف على كل البقاع وعلى كل الناس**. وخوفه جزء من مخاوف الحداثة السائلة، وقد حقَّقت السيولة «**المجتمع المفتوح**» بشكلٍ أكبر مما حلم به كارل بوبر. لكن سرعان ما أُحبط هذا المجتمع المفتوح بسياج «عولمة سلبية» - بتعبير باومان - ذات نزعة انتقائية، لا تروِّج إلَّا التجارة ورأس المال والمراقبة والمعلومات والعنف والأسلحة والجريمة والإرهاب، وأضيف اليوم كورونا مادةً للتداول. وأصبح «المجتمع المفتوح» نقمةً على أهله؛ فلم يعودوا قادرين على حفظ حريته ولا رعاية انفتاحه. فأصبحوا يعيشون حالةً من التبعية والعجز والبؤس والخوف. فلمَّا داهمهم كورونا - في سياق عولمة سالبة، ومجتمعٍ مفتوح - وجدوا أنفسهم في مواجهة قوى ووضعياتٍ غير قادرين على التعامل معها والسيطرة عليها، بل لا يفهمونها! **إنهم خائفون لأنهم غير قادرين على حماية أنفسهم، ولا على إغلاق حدودهم، ولا على تأمين حياتهم. فلا سبيل لهم اليومَ لتحقيق «أمنهم الصحي»، ولا ضمانه، إن هم أرادوا الاعتماد على أنفسهم داخل بلدهم؛ فلا أمن في انفصالٍ عن بقية العالم**. لقد أصبح كورونا السلعة المفضَّلة في «**أسواق بلا حدود**»، **وأصبح الخوف مع كورونا حالةً مزاجيةً عالميةً تمتلك قوةَ دفعٍ ذاتيةً ومنطقَ تطوُّر خاصًّا بها**. فهو قد نما وانتشر ولا يحتاج لأي استثمارٍ إضافيٍّ.

وعليه، أصبح الناس يخافون من امتداد الخوف ومن تحولاته؛ فهم يشعرون به عندما يوضعون خلف الأسوار، وفي قاعات الحَجر، يقف على رؤوسهم الحراس، أو يتنقلون في سياراتٍ مصفَّحة أو في مركباتٍ معقَّمة، وكلها احتياطات تعزِّز الشعور بالخوف والإحساس بالخلل. في هذا السياق، تحوَّل الخوف إلى كائنٍ ملموسٍ وموجودٍ بشكلٍ مباشر، فاستجاباتنا لضغوطاته تعيد إنتاج الهواجس المخيفة باعتبارها واقعًا يوميًّا تتجسَّد فيه كلمة الخوف المجرَّد وقد استقرَّ في الداخل، يشاركنا كل أنشطتنا اليومية. فكل الأفعال التي يولدها يومًا بعدٍ يوم تمدُّه بالدافعية والطاقة لإعادة إنتاج نفسه. كما يستمدُّ من الطاقة المتراكمة من الخوف التي نشأت في حالة الحداثة الصلبة، خاصةً في مراحل انعطافها نحو السيولة. **وبداية السؤال الوجودي المقلق من جديد: من أين؟ وإلى أين؟ إن دورة الخوف التي ينشط فيها كورونا لا تنفكُّ - وهي تجدِّد ذاتها، وتولد آلياتها، وتزيد من سرعتها - عن استخدام طاقتها من الهزات الوجودية التي يعيشها العالم السائل اليوم.** وبالتأكيد إنها هزاتٌ رافقت البشرية في رحلتها التاريخية، ولم تستطع دائمًا أن تمنعها من لطمات الأقدار، بتعبير المفكِّر الأخلاقي التركي بديع الزمان سعيد النورسي. وهي لطمات عجز الإنسان عن تفاديها، بَلْهَ التنبؤ بها، أو منعها، أو التقليل من مخاطرها. إن القدر - من منظور باومان - يرمز إلى الجهل وإلى العجز البشري، وترجع قوته الرهيبة إلى ما يعتري ضحاياه من الوهن. إن غياب الاطمئنان الوجودي يجعلنا نقتنع بالتظاهر بالعيش في أمان. لقد جعلتنا السيولة - مع كورونا - نحس بأن «التقدُّم» الذي بشَّرت به الحداثة الصلبة، وهو واقع لا محالة ومذهل ولا يمكن التقليل من قيمته ومن إيجابياته الكبرى، جعلتنا السيولة نعيشه اليوم واقعًا مريرًا وجبريةً متطرِّفة، بعد ما كان أملًا وطموحًا، بل صار تهديدًا يهدِّد الراحة والسكينة. إنها المخاطر التي يخفيها العالم المبهم والمستقبل الغامض. لذا ترانا اليومَ منشغلين بتحديد أعراض الفايروس، وطرق الوقاية منه، وقد كان العالم بالأمس منشغلًا بتحديد العلامات السبع للسرطان، والأعراض الخمسة للاكتئاب، أو دفع الأرواح الشريرة التي تسبِّب ضغط الدم، وزيادة الكوليسترول، والسمنة...إلخ. إننا نبحث عن أماكن نفرغ فيها الخوف؛ فبالأمس ينصحوننا بتجنُّب التدخين والوجبات السريعة والاتصالات الجنسية غير الآمنة.... واليوم النظافة، وعدم المصافحة، ولزوم البيوت، مع الاحتياط من الشائعات المتوالية. لكنها تبقى «نصائح» و«توجيهات» هي في ذاتها مثيرة للهلع، مما يعزِّز الطاقة الذاتية لتوليد الخوف. **إن تدوير الخوف لا يمكن فصله عن الرغبة في الأرباح، الاقتصادية أولًا والسياسية** ثانيًا؛ فشركات الدعاية والإعلان تنشط في ظروفٍ كهذه من أجل زيادة مبيعاتها.

إن رأسمال الخوف - في نظر باومان - مثل الأموال السائلة والجاهزة للاستثمار في أي شيء، قابلة لتحقيق الأرباح الاقتصادية والسياسية معًا. فقد يُختزل القانون والنظام العام مثلًا في تأمين السلامة الصحيَّة

للأفراد. وأصبح عرض المخاطر المهدِّدة لهذه السلامة ميزةً رئيسةً، وربما مادة سبقٍ إعلاميٍّ. وهو ما يزيد من القوة التسويقية لرأسمال الخوف ولاستخداماته السياسية. ويصوِّر باومان هذه الوضعية للعالم كما يظهر على شاشات التلفزيون، وفي مواقع التواصل الاجتماعي، يصوِّرها مثل قطيع هم المواطنون، تجري حمايتهم من مجرمين أو من خطر - كورونا في حالتنا - بفضل كلاب القطيع. ويذهب باومان إلى أنه مهما بذلتَ من مجهوداتٍ فلن تستطيع إزالة أسباب القلق أو منعه. وقد تنتصر الإنسانية - بفضل العلماء المرابطين في مختبراتهم - على كورونا، ونخرج من هذه اللحظة العصيبة، ولكن دائرة الخوف المفرغة وكذا أفعاله المنبعثة منه لن تفقد شيئًا من قوتها الذاتية. **فالدائرة الكبرى الأساسية التي أحكم الخوف قبضته عليها هي دائرة: الأمان والثقة بالنفس والطمأنينة**، وأما حالة الخوف التبعية التي نعيشها مع الفايروس الآن فليست إلَّا دائرة السلامة، وهي دائرة ثانوية بالنسبة إلى دائرة الأمان، وتتعلَّق بالحماية من تهديدات الفايروس، وبمساسه بسلامة الأفراد وقدراتهم الصحية والمادية. فالخوف في الدائرة الأولى يعزِّزه - في مرحلة السيولة - تحلُّل الدولة السائلة من التزاماتها الاجتماعية، وهي مصدر شرعيتها في دولة القرن العشرين، وترك أمان المواطنين لتقلبات السوق، بعيدًا عن المراقبة السياسية. لقد تراجعت الدولة السائلة عن سياسات الضمان الاجتماعي، وعن جلِّ وعود «دولة الرفاه» مع الحداثة الصلبة، إلى مستوياتٍ لا تبعث على الأمل ولا على الثقة. لقد امتدَّت سيولة السوق إلى أسفل جدران دفاعات دولة الحداثة الصلبة، فتحطمت الدفاعات الجمعية؛ مثل: النقابات العمَّالية، والأحزاب السياسية، والهيئات المدنية والحقوقية، فقوَّض السوق تماسكَ الضعفاء، وأصبح الفرد هو المسؤول وحده عن حلوله لمشكلاته الاجتماعية، من خلال أفعالٍ ومبادراتٍ فردية ومنفردة، بموارد وإمكانياتٍ غير كافية. وعليه، نكون في وضع خصوصة المشكلات والأزمات، وتعميق الشعور بالوحدة والعزلة، على صعيد الأفراد، وكذا الدول (تجربة إيطاليا مع كورونا مثلًا)، بما ينبئ بحالاتٍ مُفزعة من التشظي والقلق والخوف تنتظر العالم، وليس كورونا آخر أسبابها.

مركز نهوض
للبحوث والدراسات

NOHOUDH CENTER
FOR RESEARCHS
AND STUDIES

All rights reserved © 2020

جميع الحقوق محفوظة © ٢٠٢٠